تفاصيل، وبما يتعين على البحث فيه والتنقيب عنه، وكتبت. ولكني الآن غير قادر على الكتابة. أحيانا أشعر أنني ملاحق بما يقله لي هذا الصندوق من صور وأخبار كأنها كلاب سلوقية تتعقبني، أركض موتورا طالبا النجاة بعمري. وأحيانا أشعر أنني ضرير محبوس في سجن انفرادي، أو أشعر أن ما أتابعه، (قصف الطائرات في مشارق الأرض، والأقفاص الحديدية في مغاربها مودعٌ فيها أسرى الحرب حفاة يرتدون زيا برتقاليا مقيدين بأغلال من حديد، والماء فيما بينهما تحتله البوارج وحاملات الطائرات، ومشاهد أخرى أيضا وأحاديث مطولة عن حروب وشيكة تدعمها صور حاملات الطائرات وأرقام الجنود) تجتاحني كأنها دبابات تدرج في بيتي وتوجه مدافعها إليّ، أو طائرات تغير ليلا وتصيب أهدافها مستعينة بقنابل ضوئية تحول ظلام الليل إلى أضواء تنذر بنار جهنم. حدث ذلك طوال عامين، بدأت الكتابة وواصلتها على خلفية مشاهد الصندوق وفزعي. حتى عندما حدثت مذبحة جنين واجتيحت نابلس ودمر مبانيها الأثرية، واصلت الكتابة. ما الذي جد؟ ولماذا أجلس هكذا، أتطلع الصفحة البيضاء وأظل أنتظر فلا تأتي الكتابة. ما الذي يعوّق الكلام؟

حين يثقل على الخوف والجنازات أبحث عن قشة أتشبث بها، ثم أبحث عن قشة ثانية وثالثة، ويبدو لي أنني سأقدر على تكوين طوف من القش ينقلني إلى بر أمان. أحيانا، قشة الغريق أجدها عند الرافعي. هل قلت أنني أكره لم أقل ذلك. قلت: قتلني. تجنيت عليه، أرجع إليه كتلميذ يستذكر واجبه المدرسي، أقرأ ما يحكيه لي. خذ مثلا تلك الفقرة التي كتبها عن المقاومة في السويس في نهاية عام ١٩٥١. يقول الرافعي:

«في ٥ ديسمبر شيعت مدينة السويس الشهداء الذين سقطوا في معركة اليوم السابق ـ ٤ ديسمبر ـ وكانت نعوش ضحايا خمسة عشر شهيدا تخرج من المستشفى واحدا في اثر الآخر، وهي مغطاة بالعلم المصري، وفي طليعة هذه النعوش نعش صغير يضم جثمان حسن عبد الله الطالب بمدرسة النهضة